لسان الدين بن الخطيب

الصفحة الأخيرة من حياته

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلاني

مد الليل أروقته السوداء في غرناطة الأندلسية العظيمة ، واتشحت سماؤها المرصعة بالنجوم الزاهرة تلك الليلة بالغمام ، وتضاحك البرق من عربدة الرعد المدوي ، وتهادى الثلج نازلا بأناة وكرم يكسو بالبياض كل ملون... ويتراكم طبقات بعضها فوق بعض ، وخلت الدروب من كل صوت ونأمة ...

وسرت عدوى السكون العميق إلى قصر ابن الخطيب الباذخ فما كان يسمع فيه شيء مما اعتاد أن يزخر به القصر العتيد من

يفهموا أن المراك سيكون شديداً وقاسياً ، وعليهم أن يكتسبوا المعركة الخارجية ، وهي معركة الدعاية لقضيتهم في أميركا وفي بقية أنحاء العالم ، عليهم أن يظهروا مساوئ الاستعمار وأضاليله ، وأن يجعلوا الدعاية قائمة في كل مكان ، وأن تمتاز بالثبات والرسوخ والهدوء والمداومة .

ففي مصر لا يكفي شعور الناس بالعطف على قضيتهم ، بل يجب إبرازها كل يوم في ثوب جديد على صفحات الجرائد والمجلات ، بل نريد أن نسمع رأيهم وصوتهم ، ونرى مناظر بلادهم ومساجدها وأسواقها ، ونقرأ لأدبائهم وزعمائهم كل يوم ، ونود أن نشاركهم أفراحهم وآلامهم ، ونسمع أغانيهم ، ونرتل شعرهم ، ونظهر على مطبوعاتنا صور معاهدهم ورجالهم ومظاهر الحياة عندهم

إننا في حاجة إلى أن نتعرف على أهل المغرب ، لأننا في مصر نحن أهلها أقرب أهل المشرق إليهم .

لقد تلاقت النفوس قبل اليوم ، وارتبطنا بهم بروابط لا تنفصم عراها ، لأن في مصر أسراً بأكملها تنحدر من تلك الأصول العربية التي جاءت من أرض المغرب

إننا لا نطمئن نفوسنا قبل أن ينال المغرب استقلاله ويحصل على حريته

أحمد رمزي

صوت القيان أو نداء المزاهر ، وما كان يرى في أكنافه الرحيبة من وراء الكوى ، إلا ضوء واحد يمرق من نافذة في غرفة رب القصر ، وإن كان قد انتصف الليل من وقت طويل .

وهدر الرعد من جديد ، ففتحت على ابن الخطيب بابه فتاة في مقتبل العمر وانزاحت من الباب رفيقة إلى حيث يجلس الكهل ، وتقدمت إليه تحييه وتقول له في دلال :

— أوَ لا تزال يا عماه مسهد الجفن تكتب والناس رقود ؟

فيرفع ابن الخطيب رأسه ويمد بصره إلى ابنة أخيه ، وقد أضنى عينيه ضوء الشموع وصفحة الكتاب ويقول لها :

— إن الذي ميزني يا بنتاه عن الناس الذين تسمين ، إنما هو هذا السهاد وهذا الاعتكاف ، وما بلغ امرؤ يا بنتاه في غطيطه ما يبلغ الساهر في سبيل العلم ، ولو درى أولئك السادرون في غواياتهم أية لذة أطعم ، وأية سعادة أذوق ، لاستبدلوا بالفراش المحار ، ولأوغلوا فيما أنا في سبيله ... ألا يستوي جاهل وعالم ، وساع إلى الراحة ومتشبث بأذيال العلم ... وهذه غرناطة تعلم أن شيخها يسهر والناس من حوله نيام ، فيصيب من سهره ما يميزه عن النائمين والغافلين ...

ثم يعود الشيخ إلى نفسه فيستدرك ويقول :

— وأنت يا ابنتي ما بالك بارحت الخدر وأنت إلى الرقاد أحوج من شيخ غرناطة ؟ ... أهو حلم لذيذ أرسلك إلى عمك تقاسمينه خبره ؟ فتجيبه : لقد أيقظتني جلجلة الرعد ، فما استطعت من بعد اليقظة إغفاءة !

وتجلس الفتاة ، فيسألها عمها أن تكتب له الصحائف الباقية من كتابه « الأصول لحفظ الصحة من الفضول » . فتكتبها وهو يمليها عليها ... وتنتهي فتطلق الفتاة عليه بأنه عمل متعب قد يؤذي صحته الثانية . فيقول لها : « يا بنتاه ، العجب حتى مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب ، فإني لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي » . فتقول مجيبة : « ولكنه يا عماه أرق مفيد على كل حال ، وهل تنكر فضل الأرق الذي خرجك في الفلسفة والطب والتفسير والحديث والفقه والتاريخ وعلوم العربية من شعر بارع ونثر بديع ؟

فيبتسم الشيخ ابتسامة استكبار وتيه ... ولم تكن الفتاة عاملة ولا مراوغة في هذا الذي قالت ، فقد عرفته الليالي طالب علم ورجل جد ، وعرفه أساتيذ غرناطة ذكي الفؤاد ، واعي البصيرة ، سديد التفكير .

ويغرق لسان الدين في فكرة طارئة ، وتسهم مقلتاه الزرقاوان في غير وعي ... فتقول له ابنة أخيه : « ولقد فرغت يا عم من مطالعة ما زودتني به من كتاباتك ، فراقني منك شعر النزل الجيل في هذه الوشحات التي رصعتها بما يعيا به الصاغة الماهرون ، وأعجبني كلام الأتقياء ، ولكنني وجدت في رسائلك التي تتندر بها على الحال الاجتماعية سجعاً غريباً ، وإطالة لا عهد لك بمثلها ، فقد أطلت فيما كتبت وأطنبت في التصوير إطناباً خيل إليّ معه أنك قد ملأت من الفكرة الصغيرة صفحات ، فهل ستنسيك السياسة ذياك الأسلوب والنغمة التي فتنت بها غرناطة وأرقصت عذاراها زمناً ؟

وهنا يتبسم لسان الدين مرة أخرى ، ويهيب بفتاته أن تعود إلى مخدعها ، فقد انقطع الرعد ، ولم يبق من الليل إلا رمق ، وإنه ليرى أن السهاد قد يضر جمالها الضحيان ... وإذ تذهب يقيم لسان الدين يفكر ، ويعمل الرأي في هذه الأحداث التي توالت دراكا ، ويبحث هذه القلاقل السياسية التي أوشكت أن تودي بأدبه الغض وخياله الرائع ... لقد صدقت بنت أخيه ، فإن السياسة التي فتنته قد انبرت تخرس تلك النغمة السائغة المنسابة التي أرقصت عذارى غرناطة زمناً ، وهذه فتنة لا يدري هو أيضاً كيف استحوذت عليه ، فتبدل بالعلم والأدب السياسة ومشتقاتها ، وأقام برهة يتفكر في عواقب الأمور وما قد تجره عليه من وبال ، ووقر في نفسه أن ينتقل إلى الهامش إن هو استطاع إلى ذلك سبيلا

ثم يعود فيمد بصره في الماضي ، حيث كان السلطان أبو الحجاج يوسف يعطف عليه ، ويقرب مجلسه ، ويستأنس برأيه ، وقد اختصه بكتابته ، وأجرى عليه صنوف الرفد والعطاء ، فأنتج ما شاء له الإنتاج ، وأبدع ما وسعه الإبداع .

ثم يموت أبو الحجاج يوسف ، فيخلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج وهو الفتى الذي خدمه ابن الخطيب أصدق خدمة ووفاه أقصى حقوق الولاء ، فجزاه معروفاً بمعروف وخيراً بخير ، وأبقاه في مكانه وضاعف له الرعاية ، ولكن الفتنة الراقدة تململت ، وحبب الناس لأخي الملك الجديد أن يناوئ أخاه ويزعج نفسه ، فهو لا يدري كيف يأخذ ولا ما ذا يصنع . وقد قال له هذا الأمير الحق أن يتبين له وجهاً من الرأي ودرباً من الرشاد ينفذ منهما إلى صرع الباطل والحسد الآثم ، ولابد لابن الخطيب من نصيحة يسديها لمولاه ضحى الشد ، وهو الذي عرف عنده أصالة الرأي وسداد الفكر ، فما ذا تجدي عليه هواجسه من السياسة ومشتقاتها ومغبتها ، وهي مفروضة عليه يحتمها الولاء والوفاء لمن والاه ووفاه حقوقه .

هنا ينبلج الصبح ويقطع على لسان الدين التأمل رسول الملك فقد جاءه يخبره بأن الملك يريد البراح بعد أن أخفقت كل محاولة في تحسين الحال ، فيخف إليه ابن الخطيب تاركا المهاة في خدرها والكتب في أدراجها وبيارحان الملكة ... وقد تقطع قلب لسان الدين لكلمة وداع لابنة أخيه الساعفة وكلة وصية بكتبه فما أفلح

ولم يكن الهروب لينجي ابن الخطيب ، فقد وقع في قبضة السلطان الجديد ، وأراد التنكيل به لولا أن سلطان المغرب الذي شغف بأدبه وعلمه يحميه من البطش ، ويعهد له من مدينة فاس أرضاً صالحة خصيبة تواتي قريحته ، فيرسل زفرته الخالدة :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

وتلقفها ابنة أخيه ، وتقرؤها على أترابها ، وتتيه بها إعجاباً وفرحاً .. فلقد أرقص لسان الدين عذارى غرناطة من جديد .

هنا يتأزم الوضع في غرناطة تأزماً جديداً ضد لسان الدين ، ويعمل العلماء والفقهاء من أعدائه ضده ويرسلون فيه هجر القول ويرمونه بكل نقيصة ، ويروجون فيه أنه كافر ، وهم إذ يفعلون ذلك ينتقمون لمنازلهم التي احتلها هو في قلب السلطان الماضي ، وينافقون للسلطان الحاضر ، وكلا الأمرين يؤتي بالثمرة المحرمة ، التي يريدونها .

وأمر ما لقي لسان الدين من هذه البلوى أن يقود هذه الفئة المعادية والفتنة العمياء تلميذه ابن زمرك وهو الذي نشأ وترعرع على يديه .. فقد وكل هذا المخلوق المنحوس قلمه في شرح وتبسيط كفر لسان الدين الذي علم الله أنه منه براء .